الكبريت فى يدى و دويلاتكم من ورق

نزار قبانى

يحتوي الديوان على القصائد التالية

مدخل

أحاول منذ البدايات،

أن لا أكون شبيهاً بأي أحد..

رفضت عبادة أي وثن..

أحاول إحراق كل النصوص التي أرتديها

فبعض القصائد قبرٌ

وبعض اللغات كفن....

إنني محظوظٌ، لأن أعدائي يتجددون..

الكتابة مهنةٌ بلا سنٍ تقاعدي

قد تجد عاملاً متقاعداً، أو عسكرياً متقاعداً،

أو موظفاً متقاعداً..

لكنني لا أعتقد أنه قد مر في التاريخ

كاتب متقاعد، أو فنان متقاعد...

غابرييل غارثيا ماركيز

إنني كتلةٌ هائلةٌ من الشظايا

ثم تأتي الريح، وتجمعني...

بيكاسو

أعذروني، أيها السادة

إنني سمكةٌ وحشية

داخل زجاجة حبر..

ألبرتو مورافيا

هنـاك بـلاد

هناك بلادٌ تخاف على نفسها

من هديل الحمام،

وقهقهة الريح بين الشجر

وتستنفر الجيش

براً.. وبحراً.. وجواً..

لكي يستعد لقتل القمر...

هناك بلادٌ

تشرع أبوابها للبغايا

وترفض أن تمنح الشعر،

تأشيرةً للسفر....

هناك بلادٌ.. يشيد السلاطين فيها

ألوف الجوامع

ولا يقطعون فروض الصلاة،

ولكنهم يقطعون الرقاب

ويقتلعون الأصابع

هناك بلادٌ..

يخاف الخليفة فيها على نفسه

من حوار المقاهي..

ومن قهقهات التلاميذ،

إذ يعبرون الشوارع....

24/1/89

استراتيجية

سأبقى أغني..

سأبقى أغني..

إلى أن أحطم من يعبدون الفروج..

ومن يشترون بشيكاتهم

بنات الهوى..

ورجال القلم..

سأبقى أغني

برغم عويل الرياح، وعصف المطر

وهم يركضون وراء القصيدة،

مثل كلاب الأثر..

89/1/24

فوق

أنا رجلٌ لا يريح.. ولا يستريح
فلا تصحبيني على الطرق المعتمة
فشعري مدانٌ
ونثري مدانٌ
وربي الطبيعي بين القصيدة.. والمحكمة...
يشرفني أنني ما قبلت وساماً
فإني الذي يمنح الأوسمة..
ولم أك بوقاً لأي نظامٍ
فشعري فوق الممالك والأنظمة....

89/1/16

تلك هى الجريمة

-1-

يقال عني: شاعرٌ رجيم

وإن ما أكتبه

قصائدٌ رجيمة..

وإنني أخالف الأعراف..

والأخلاق

والمناقب الكريمة..

-2-

يقال أيضاً:

إنني المسؤول عن إفلاسنا الروحي..

والقومي.. والإحباط.. والهزيمة..

يقال ألف قصةٍ وقصة .. عني

فكل مبدعٍ في وطني

يطفو على بحرٍ من النميمة،

لكنني أظل دوماً واقفاً

كالرمح فوق مركبي..

أواجه البروق، والرعود،

والعواصف اللئيمة

فإنني أعيش يا سيدتي، في وطنٍ

تعتبر الكلمة في قانونه..

جريمة...

-3-

لا تقلقي علي.. يا صديقتي

فكل ما اتهمت فيه من جرائمٍ

جرائمٌ جميلة..

ألم أقل بأن هذه الدنيا بغير امرأةٍ؟

كومٌ من الحجارة

وأن من لا يعرف العشق

فلا يمكن أن يعرف ما الحضارة..

-4-

لا تقلقي علي.. يا صديقتي

فكل ما اقترفته

أني منعت البدو أن يعتبروا النساء كالوليمة...

وكل ما ارتكبته

أني رفضت القمع..

و(الإيدز) السياسي..

والفكر المباحثي..

والأنظمة الدميمة..

وكل آثامي – وما أروعها –

أني انتخبت صوت فيروزٍ

ولم أنتخب الحكومة...

وكل أخطائي التي أزهو بها

أني رفضت أن يداس الشعب

بالأحذية القديمة..

تلك هي الجريمة

تلك هي الجريمة

-5-

صديقتي

صديقتي الحميمة

لا تتعبي نفسك في متاعبي

سيسقط الطغاة عن آخرهم

وتصمد القصيدة العظيمة...

1988/11/15

هذا أنا

-1-

أدمنت أحزاني

فصرت أخاف أن لا أحزنا

وطعنت آلافاً من المرات

حتى صار يوجعني، بأن لا أطعنا

ولعنت في كل اللغات..

وصار يقلقني بأن لا ألعنا...

ولقد شنقت على جدار قصائدي

ووصيتي كانت..

بأن لا أدفنا

وتشابهت كل البلاد..

فلا أرى نفسي هناك

ولا أرى نفسي هنا...

وتشابهت كل النساء

فجسم مريم في الظلام.. كما منى..

ما كان شعري لعبةً عبثيةً

أو نزهةً قمريةً

إني أقول الشعر – سيدتي–

لأعرف من أنا....

-2-

يا سادتي:

إني أسافر في قطار مدامعي

هل يركب الشعراء إلا في قطارات الضنى؟

إني أفكر باختراع الماء..

إن الشعر يجعل كل حلمٍ ممكنا

وأنا أفكر باختراع النهد..

حتى تطلع الصحراء، بعدي، سوسنا

وأنا أفكر باختراع الناي..

حتى يأكل الفقراء، بعدي، (الميجنا) [1]

إن صادروا وطن الطفولة من يدي

فلقد جعلت من القصيدة موطنا..

-3-

يا سادتي:

إن السماء رحيبةٌ جداً..

ولكن الصيارفة الذين تقاسموا ميراثنا..

وتقاسموا أوطاننا..

وتقاسموا أجسادنا..

لم يتركوا شبراً لنا..

يا سادتي:

قاتلت عصراً لا مثيل لقبحه

وفتحت جرح قبيلتي المتعفنا..

---

[1] الميجنا : من الأغاني الفلسطينية المميزة للشمال الفلسطيني ، وهناك خلاف حول أصل هذا اللون من الغناء فالبعض يرى به لوناً غنائياً لبنانياً لتداخل الجنوب اللبناني مع الشمال الفلسطيني والبعض يرى به لوناً فلسطينياً يعود موطنه للجليل الفلسطيني..

أنا لست مكترثاً

بكل الباعة المتجولين..

وكل كتاب البلاط..

وكل من جعلوا الكتابة حرفةً

مثل الزنى...

-4-

يا سادتي:

عفواً إذا أقلقتكم

أنا لست مضطراً لأعلن توبتي

هذا أنا...

هذا أنا...

هذا أنا...

1988-6-15

الطابور

طالبت ببعض الشمس،

فقال رجال الشرطة:

قف – يا سيد– في الطابور

طالبت ببعض الحبر، لأكتب إسمي..

قالوا: إن الحبر قليلٌ...

فالزم دورك في الطابور

طالبت بأي كتابٍ أقرأ فيه..

فصاح قميصٌ كاكيٌ:

من كان يريد العلم..

فإن عليه، قراءة منشورات الحزب..

وأحكام الدستور..

طالبت بإذن حتى ألقى امرأتي

فأجابوني: إن لقاء المرأة صعبٌ..

وعلى العاشق،

أن لا ييأس من طول الطابور

طالبت بإذنٍ..

حتى أنجب ولداً..

قال نقيبٌ، وهو يقهقه:

إن النسل مهم جداً..

فلتستنظر، سنةً أخرى، في الطابور

طالبت برؤية وجه الله..

فصاح وكيلٌ من وكلاء الله..

(لماذا؟)

قلت: لأني إنسانٌ مقهور..

فأشار إلي بإصبعه

وفهمت بأن المقهورين

لهم أيضاً طابور...

*****

يا ربي:

أرجو أن ألقاك.. ولكن لا تتركني

مثل كلاب الشارع، في الطابور

من يوم أتيت إلى الدنيا

وأنا مزروعٌ في الطابور

ساقاي تجمدتا في الثلج،

ونفسي كالورق المنثور

منتظرٌ وطناً.. لا يأتي

وشواطيء دافئةً.. وطيور..

لا أدري.. كيف أقول الشعر

فحيث ذهبت يلاحقني الساطور..

كل الأوراق مفخخةٌ..

كل الأقلام مفخخةٌ..

كل الأثداء مفخخةٌ...

وسرير الحب..

يريد جواز مرور...

*

يا ربي:

إن الأفق يضيق يضيق يضيق

وهذا الوطن القابع بين الماء.. وبين الماء..

حزينٌ كالسيف المكسور..

فإذا ودعنا كافوراً..

يأتينا.. أكثر من كافور..

*

يا ربي:

إن الأفق رماديٌ

وأنا أشتاق لقطرة نور

إن كنت تريد مساعدتي

يا ربي.. فاجعلني عصفور...

1989/2/2

تصميم

ليس في وسعك، يا سيدتي،

أن تصلحيني

فلقد فات القطار

إنني قررت أن أدخل

في حربٍ مع القبح..

ولا رجعة عن هذا القرار..

فإذا لم أستطع إيقاف جيش الروم

أو زحف التتار

وإذا لم أستطع أن أقتل الوحش

فحسبي أنني

أحدثت ثقباً في الجدار...

إذا

إذا أردت أن تكون شاعراً

مختلف الملامح..

وفاتكاً.. وجارح..

فأخرج على غرائز القطيع

خيارات

ليس هنالك لعبٌ بالكلمات

فعلى الشاعر أن يختار معاركه

أو يختار السكنى

في بيت الأموات...

التماسيح

يعمر الحاكم في بلادنا

ألف سنه..

وعندما يذهب –مضطراً– إلى ضريحه

يهنىء المشيعون بعضهم

وترقص الأزهار خلف نعشه

والأحصنه...

التصوير فى الزمن الرمادى

-1-

أحاول منذ الطفولة

أن أتصور شكل الوطن

رسمت بيوتاً،

رسمت سقوفاً،

رسمت وجوهاً،

رسمت مآذن مطليةً بالذهب

رسمت شوارع مهجورةً

يقرفص فيها.. لكي يستريح التعب

رسمت بلاداً، تسمى مجازاً،

بلاد العرب..

-2-

أحاول منذ الطفولة رسم بلادٍ

تسامحني..

إن كسرت زجاج القمر

وتشكرني.. إن كتبت قصيدة حبٍ

وتسمح لي أن أمارس فعل الهوى

ككل العصافير، فوق الشجر..

أحاول رسم بلادٍ..

بها بشرٌ يضحكون.. ويبكون مثل البشر

أحاول أن أتبرأ من مفرداتي

ومن لعنة المبتدا.. والخبر..

وأنفض عني غباري

وأغسل وجهي بماء المطر..

أحاول من سلطة الرمل أن أستقيل...

وداعاً قريشٌ..

وداعاً كليبٌ..

وداعاً مضر...

-3-

أحاول رسم بلادٍ

لها برلمانٌ من الياسمين..

وشعبٌ رقيقٌ من الياسمين..

تنام حمائمها فوق رأسي..

وتبكي مآذنها في عيوني

أحاول رسم بلادٍ..

تكون صديقة شعري

ولا تتدخل بيني.. وبين ظنوني

ولا يتجول فيها العساكر

فوق جبيني..

أحاول رسم بلادٍ

تكافئني.. إن حرقت ثيابي

وتصفح عني..

-4-

أحاول رسم مدينـة حبٍ

تكون محررةً من جميع العقد..

فلا يذبحون الأنوثة فيـها..

ولا يقمعون الجسد..

رحلت جنونـاً..

رحلت شمالاً..

ولا فائده..

فقهوة كل المقاهي، لـها نكـهةٌ واحده

وكل النساء لـهن، إذا ما تعرين..

رائحةٌ واحده..

وكل رجال القبيلة، لا يمضغون الطعام

ويلتـهمون النساء..

بثانيةٍ واحده...

-5-

أحاول منذ البدايات..

أن لا أكون شبيهاً بأي أحد

رفضت الكلام المعلب دوماً

رفضت عبادة أي وثن

أحاول إحراق كل النصوص التي أرتديها

فبعض القصائد قبرٌ

وبعض اللغات كفن

رسمت نزيف المقاهي

رسمت سعال المدن

وواعدت آخر أنثى

ولكنني.. جئت بعد مرور الزمن....

-6-

أحاول رسم بلادٍ

سريري بها ثابتٌ

ورأسي بها ثابتٌ

لكي أعرف الفرق بين البلاد.. وبين السفن..

ولكنهم.. أخذوا علبة الرسم مني

ولم يسمحوا لي..

بتصوير وجه الوطن...

1989/1/25

القصيدة تطرح أسئلتها

يسرني جداً..

بأن ترعبكم قصائدي

وعندكم، من يقطع الأعناق..

يسعدني جداً.. بأن ترتعشوا

من قطرة الحبر..

ومن خشخشة الأوراق..

يا دولةً.. تخيفها أغنية

وكلمةٌ من شاعرٍ خلاق...

يا سلطةً..

تخشى على سلطتها

من عبق الورد.. ومن رائحة الدراق

يا دولةً..

تطلب من قواتها المسلحة

أن تلقي القبض على الأشواق....

*****

يطربني..

أن تقفلوا أبوابكم

وتطلقوا كلابكم

خوفاً على نسائكم

من ملك العشاق...

يسعدني

أن تجعلوا من كتبي مذبحةً

وتنحروا قصائدي

كأنها النياق..

فسوف يغدو جسدي

تكيةً.. يزورها العشاق

*****

يقرؤني رقيبكم..

وهو يسن شفرة الحلاقه..

كأنما رقيبكم

-في أصله- حلاق...

ليس هناك سلطةٌ

يمكنها أن تمنع الخيول من صهيلها

وتمنع العصفور أن يكتشف الآفاق

فالكلمات وحدها..

ستربح السباق...

*

ستقتلون كاتباً..

لكنكم لن تقتلوا الكتابه..

وتذبحون، ربما، مغنياً

لكنكم لن تذبحوا الربابه...

تسعٌ وتسعون امرأة...

تقبع في حريمكم

فالنهد قرب النهد..

والساق قرب الساق..

وكل شيءٍ جاهزٌ

وثيقة النكاح.. أو وثيقة الطلاق..

والخمر في كؤوسكم

والنار في الأحداق

وتمنعون دائماً قصائدي

حرصاً على مكارم الأخلاق!!

إنتظروا زيارتي..

فسوف آتيكم بدون موعدٍ

كأنني المهدي..

أو كأنني البراق...

إنتظروا زيارتي..

فلست محتاجاً إلى تأشيرةٍ

ولست محتاجاً إلى معرفٍ

فالناس في بيوتهم يعلقون صورتي..

لا صورة السلطان..

والناس، لو مررت في أحلامهم

ظنوا بأني (قمر الزمان)....

*****

حين يمر موكب الخليفه

في زحمة الأسواق

يبشرالأطفال أمهاتهم

لقد رأينا...

(طائر اللقلاق)....

*

إنتظروني.. أيها الصيارفه

يا من بنيتم من فلوس النفط..

أهراماً من النفاق..

يا من جعلتم شعرنا.. ونثرنا..

دكانة ارتزاق..

*

إنتظروا زيارتي..

فالشعر يأتي دائماً

من عرق الشعب، ومن أرغفة الخبز،

ومن أقبية القمع..

ومن زلازل الأعماق..

مهما رفعتم عالياً أسواركم

لن تمنعوا الشمس من الإشراق...

1989/1/30

أصهار الله

-1-

ما جاء يوماً حاكم لهذه المدينة

إلا دعا الناس إلى المسجد..

يوم الجمعة..

و قال في خطبته العصماء

بأنه من أولياء الله...

و أصفياء الله...

و أصدقاء الله...

-2-

ما جاء يوما حاكم

لهذه المدينة المقهورة،

المكسورة،

الحزينة...

إلا ادعى، بأنه الممثل الشخصي،

و الناطق باسم الله..

فهل من المسموح،

أن أسأله تعالى..

هل أنت قد أعطيتهم وكالة

مختومة..موقعة؟..

كي يجلسوا على رقاب شعبنا

إلى الأبد....

هل أنت قد أمرتهم

أن يخربوا هذا البلد؟

و يسحقونا كالصراصير،

بأمر الله..

و يضربونا بالبساطير،[2]

بأمر الله...

فإن سألت حاكما منهم

---

[2] كلمة"بساطير" باللهجة الفلسطينية جمع لكلمة"بسطار"وهي جزمة العسكري"حذاؤه"

من الذي ولاك في الدنيا على أمورنا؟

قال لنا: يا جهلة..

أما علمتم أنني..

أصبحت صهر الله؟؟

-3-

أريد أن أصرخ:

يا الله !

هل أنت عينت وزير المال؟

إذن.. لماذا انفجر الفقر؟

لماذا انفجر الصبر؟

لماذا ساءت الأحوال؟

و أصبح الصحن الرئيسي هو الزبالة...

و أصبح العصفور في بلادنا..

لا يجد النخالة..

فهل غلاء الخبز..

شأن من شؤون الله؟؟

و هل غلاء الفول؟ و الحمص..

و الطرشي..

و الجرجير..

شأن من شؤون الله؟...

و هل غلاء الموت، و الأكفان،

شأن من شؤون الله؟

إذن لماذا يأكل الكبار كافيارا

و نحن نأكل النعال؟

إذن.. لماذا يشرب الضباط وسكيا

و نحن نشرب الأوحال؟

إذن.. لماذا لا يفرق الفقير في بلادنا

بين رغيف الخبز.. و الهلال..

إذن.. لماذا في بطون أمهاتهم

ينتحر الأطفال؟...

-4-

أريد أن أسأله تعالى.

هل أنت قد علمتهم

أن يجعلوا من جلدنا طبول؟

و يغسلوا دماغنا..

و يستبوا نساءنا..

و يركبونا بدل الحمير والخيول..

أريد أن أسأله تعالى

هل أنت قد أمرتـهم؟

أن يكسروا عظامنـا..

و يكسروا أقلامنـا..

و يقتلوا الفاعل و المفعول

و يمنـعوا الأزهار أن تنبت في الحقول؟؟

-5-

أريد أن أسأل :

يا الله..

هل أنت قد أعطيتـهم

شيكا على بياض؟

ليشتروا فرساي.. و المملكة المتحدة

و يشتروا بابل.. و الحدائق المعلقة

و يشتروا الصحافة المرتزقة...

هل أنت قد أعطيتهم شيكا على بياض؟

ليشتروا التاج البريطاني.. و القصور..

و يشتروا النساء في الأقفاص، كالطيور

و القمر الأخضر في سماء نيسابور؟؟

-6-

أريد أن أسأل:

يا الله..

هل أنت قد صاهرتـهم

حقا؟..

و هل من قاتل لشعبه

يصبح صهر الله؟؟

مقابلة تلفزيونية مع (غودو) عربى[3]

1

[3] نسبة لمسرحية (بانتظار غودو) لصموئيل بيكيت Waiting for Godot.

من هو غودو هذا؟

أهو المنقذ، أم الشافي أم من يجعل الحلم حقيقة؟ من هو؟ أهو الأمل، الفرح، السعادة؟ أهو الموت، الفراغ، اللاجدوى؟ من هو هذا القادم الذي يقضي أبطال بيكيت حياتهم في انتظاره دون جدوى، وسط يأس كامل، وطبيعة جرداء: أهو الطفل الذي جاء لهم بعدة أخبار متناقضة، مرّة يقول إنه سيجيء، ومرّة يقول إنه لن يجيء اليوم؟ أهو (بوزو) القوي المستعبد لـ (لاكي) المستعبد الراضي باستعباده؟

من هو غودو: أهو الزمن الذي يحطم البشرية شيئاً فشيئاً، ويقودها، وهي ساهمة لاهية، لتشرب من كأس الموت؟ أم هو العبث: حيث لا شيء يحدث ولا أحد يجيء ـ كما تقول المسرحية ـ وحيث باطل الأباطيل باطل؟ ولماذا لا يجيء أبداً؟

إن لغزية هذا القادم الذي لا يجيء أبداً وسرّيته وغرائبيته وابهامه المطلق قد ألقى بظلال عميقة على مسرح صموئيل بيكيت (1906 ـ 1989). فهو، أي غودو، قد نسف تقاليد الدراما المتعارف عليها، مثلما نسف تقاليد الحوار وتطور الحبكة المسرحية وصولاً إلى الذروة. هنا الحوار مقطوع، مبهم، مرتبك، لا يوصل رسالة ما، أي رسالة كانت. والمتحاورون لا يقولون شيئاً مفيداً. ربما لأنّ فاجعتهم، أعني حياتهم (التي هي حياتنا دون أدنى شك) أكبر من أن توصف، وأكبر من أن يُعثر لها على حلٍ ناجع. هكذا نراهم يتحدثون فقط، لتمضية الوقت انهم يتحدثون عن أيّ شيء كان ليقتلوا الصمت. فالصمت مرعب وسط طبيعة جرداء، والانتظار أكثر رعباً.

مُنْتَظِرٌ أن يَرْحَلَ القِطَارْ

أيٌّ قطارٍ كانَ ..

لا يهمُّني .

أيٌّ اتجاهٍ كانَ ..

لا يهمني ..

للشرقِ .. أو للغربِ ..

لا يهمُّني ..

لجنّةِ الفردَوْسِ ، أو للنارْ ..

أنا كغودو ..

أسْمعُ الصفيرَ في الليلِ ،

ولكنْ .. لا أرى محطَّةً ..

ولا أرى أرْصِفَةً ..

ولا أرى قطارْ ...

2

وقفتُ في الطابورِ مليونَ سَنَهْ

كي أشتري تذكرةً

نِمْتُ على حقائبي .

نِمْتُ على متاعبي .

قرأتُ ألفَ مرةٍ جريدتي.

ما أسْخَفَ الأخبارْ ..

نَظَرْتُ ألفَ مَرَّةٍ لساعتي .

وَجَدتُها واقفةً

عَدَدْتُ ألفَ مَرَّةٍ أصابعي

وجدتها ناقصةً

فَكَّرتُ أن أذهبَ للمرْحَاضِ ..

لكنْ .. خفتُ أن يفوتني القِطَارْ ...

3

أتعبنى صقيع نصف الليل..

والتحديقُ في القُضْبَانِ ،

والجلوسُ أعواماً على مقهى الضَجَرْ

أتعَبَني انتِظارُ ما لا يُنْتَظَرْ ....

بحثتُ في صحيفة الأبراجِ

عن (بُرج الحَمَلْ)...

فلم أجدْ حمامةً قادمةً

ولا طريقاً للسفرْ ..

بحثتُ عن كأسٍ من الكونياكِ ..

عن سَجَائرٍ ..

بحثتُ عن سيّدةٍ أشمُّ عِطْرَ جِسْمِهَا

قُبَيْلَ أن أسافِرْ ..

وجدتُ صرصاراً على حقيبتي .

سألته من أنتَ؟ قالَ إنني مهاجرْ

وكان مثلي .. يرتدي قُبَّعةً ومعطفاً .

وكان مثلي جالساً ..

ينتظرُ القطار ...

4

غودو أنا ..

ليس معي تأشيرة إلى بلد

وليس في العالم من مدينةٍ

يَعْرِفُني فيها أحدْ .

كلُّ المحطاتِ التي أقْصُدُها

مُطْفَأةُ الأنوارْ .

كلُّ القطاراتِ التي أسمَعُها

تمرُّ فوقَ جُثَّتي

هل القطاراتُ هي الأقدارْ ؟

غودو أنا .

غودو أنا .

تسلَّقَ العُشْبِ على حقائبي

تسلَّقَ العُشبُ على ذاكرتي

والوقتُ فوق رَقْبَتي

يَمُرُّ كالمِنْشَارْ ..

لا تترُكي رأسي في الهواءِ ، يا سيِّدتي

فهذه الدنيا ..

بلا سقفٍ .. ولا جِدارْ ..

لا تترُكيني أبداً ..

فالقلبُ إبريقٌ من الفُخَّارْ ...

5

مُنْتَظِرٌ ، صفَّارةَ القِطَارْ

مُنْتَظِرٌ من يوم أن وُلِدْتُ ،

لحظة الخروج من مدائن الغبار

منتَظِرٌ أن يزحفَ البحرُ على قصائدي ،

وتـهطلَ الأمطارْ ..

مُنْتَظِرٌ معجزةً ، تُخرِجُني نحو مدار آخرٍ ..

نحو فضاءٍ آخرٍ ..

يؤمِنُ في بَنَفْسجِ البحرِ ،

وفي حرية الحُبِّ ...

وفي تعدُّدِ الحِوَارْ ...

6

من ألفِ عامٍ ..

وأنا منتظرٌ إجازتي

مُنْتَظِرٌ جزيرةً في البحرِ ..

لا تعرفها البحار

مُنْتَظِرٌ قصيدةً ، خاتَمُها من ذَهَبٍ ..

وخَصْرُها من نارْ ..

مُنْتَظِرٌ فاطمةً .. تأتي ومِنْ ورائِها

جيشٌ من الأشجار

وفي مياه ناهديْها .. تسبحُ الأسماكُ والأقمارْ

مُنتظرٌ فاطمةً .. تحمِلُ في كلامها ،

حضارةَ الوردةِ ، لا حضارةَ الصبَّارْ ...

لولا يَدَا فاطمةٍ ..

ما كان تشكَّلَ النَهَارْ ...

7

غُودُو أنا ..

ولم أزَلْ أبحثُ فوق الرَمْل ، عن بقية اخْضرارْ

ولم أزَلْ أبحثُ في الرُكَامِ عن زَهْرَة جُلَّنارْ

ولم أزلْ أؤمِنُ بالشعر الذي يَطْلَعُ كالوردة

من خاصرة الدمار

8

غودو أنا ..

ولا يزالُ الرومُ يسجِنُونَني

ويفرضونَ حالةَ الحصارْ .

ولا يزالُ البَدوُ يكرهونني

ويكرهون الماءَ ..

والخضرة ..

والبِذَارْ ..

فمن سوى فاطمةٍ ؟

تَرُدُّ عنّي هَجْمَةَ التَتَارْ .

ومن سوى فاطمةٍ تُحولُ الفحمَ إلى حدائقٍ

وتقلبُ الليل إلى نَهَارْ ؟..

9

ما زالَ (غُودُو) منذُ مليون سَنَهْ ..

مُرْتدياً مِعْطَفَهُ ،

وحاملاً أكياسَهُ ،

وقانِعاً أن هُناكَ في المدى محطَّةً

وأنَّ في إمكانِهِ ، لو شاءَ ،

أن يخترعَ القِطارْ ...

قراءة ثانية لمقدمة ابن خلدون

1

هذا هو التاريخ، يا صديقتي

من غير ما تعليق

وكل ما قرأت عن سيرتنا المعطرة

من كرم..

ونجدة..

ونخوة..

والعفو عند المقدرة..

ليس سوى تلفيق

وكل ما سمعته من قصص الشهامة

وعن سجايا حاتم

وعن حكايا عنتره..

لم يبق شيء منه في المفكره

وكل ما سمعت عن حروبنا المظفرة

وكرنا..

وفرنا..

وأرضنا المحرره..

ليس سوى تلفيق..

2

هذا هو التاريخ، يا صديقي

فنحن منذ أن توفي الرسول،

سائرون في جنازه..

ونحن، منذ مصرع الحسين،

سائرون في جنازه..

ونحن، من يوم تخاصمنا

على البلدان..

والنسوان..

والغلمان..

في غرناطة

موتى، ولكن ما لهم جنازة!

3

لا تثقي بما روى التاريخ يا صديقتي

فنصفه هلوسة..

ونصفه خطابة..

أطفالنا، ليس لهم طفولة..

سماؤنا، ليس بها سحابة

نساؤنا.. ما زلن في ثلاجة الخليفة

عشاقنا..

يستنشقون وردة الكآبة..

كتابنا، يحاولون القفز كالفئران،

من مصيدة الرقابة..

4

لا تثقي، يا صديقتى،

بكل ما تقوله الحكومة

فعزفها مكرر..

وصوتها نشاز...

المخبرون.. كسروا عظامنا

وشعبنا..

يمشي على عكاز...

5

صديقة العمر التي..

أقرأ في عيونها المأساة

صديقة العمر التي تقتسم المنفى معي..

والحزن.. والشتات..

نحن شعوب تجهل الفرح

أطفالنا ما شاهدوا في عمرهم

قوس قزح..

هذي بلاد أقفلت أبوابها..

وألغت التفكير عند شعبها

وألغت الإحساس..

هذي بلاد تطلق النار على الحمام..

والغمام..

والأجراس..

6

ما طار طير عندنا..

إلا انذبح..

ولا تغنى شاعر بشعره..

إلا انذبح..

7

هذي بلاد..

ما بها مسيرة تمشي..

ولا ذبابة تطير من حي.. إلى حي..

ولا أمسية شعرية تعطى..

ولا أعراس..

8

هذي بلاد

نصفها زنزانة

ونصفها حراس

تزوج الموتى نساء بعضهم

فأين راح الناس؟؟

9

تقول لي سائحة شقراء من فرنسا:

بلادكم أجمل ما شاهدت من بلدان

فالماء فيها ضاحك..

والورد فيها ضاحك..

والخوخ.. والرمان..

والياسمين عندكم،

يمشط الشعر على الحيطان..

فكيف في بلادكم..

لا يضحك الإنسان؟؟

1988/11/6

أبو جهل.. يشتري (فليت ستريت)...

1

هل اختفت من لندنٍ؟
باصاتها الجميلة الحمراء
وصارت النوق التي جئنا بها من يثرب
واسطة الركوب
في عاصمة الضباب؟

2

تسرب البدو إلى
قصر بكنغهام،
وناموا في سرير الملكة
والإنجليز لملموا تاريخهم..
وانصرفوا..

واحترفوا الوقوف – مثلما كنا–

على الأطلال..

3

ها هم بنو تغلب..

في (سوهو)

وفي (فيكتوريا)..

يشمرون ذيل دشداشاتهم

ويرقصون الجاز..

4

هل أصبحت إنجلترا؟

تصحو على ثرثرة البدو..

وسمفونية النعال؟؟

5

هل أصبحت إنجلترا؟

تمشي على الرصيف، بالخف.. وبالعقال؟

وتكتب الخطب من اليمين للشمال..

سبحانه مغير الأحوال!!

6

عنترة.. يبحث طول الليل، عن رومية

بيضاء كالزبدة..

أو مليسة الفخذين.. كالهلال

يأكلها كبيضةٍ مسلوقةٍ

من غير ملح – في مدى دقيقةٍ–

ويرفع السروال!!

7

لم يبق في الباركات..

لا بط، ولا زهر، ولا أعشاب

قد سرح الماعز في أرجائها

وفرت الطيور من سمائها

وانتصر الذباب..

8

ها هم بنو عبس.. على مداخل المترو

يعبون كؤوس البيرة المبردة..

وينهشون قطعة..

من نهد كل سيدة

9

هل سقط الكبار من كتابنا

في بورصة الريال؟

هل أصبحت إنجلترا عاصمة الخلافة؟

وأصبح البترول يمشي ملكًا..

في شارع الصحافة؟؟

10

جرائد..

جرائد..

جرائد..

تنتظر الزبون في ناصية الشارع،

كالبغايا..

جرائد، جاءت إلى لندن،

كي تمارس الحرية..

تحولت – على يد النفط –

إلى سبايا...

11

جئنا لأوروبا
لكي نشرب من منابع الحضارة
جئنا.. لكي نبحث عن نافذة بحرية
من بعدما سدوا علينا عنق المحارة
جئنا.. لكي نكتب حرياتنا
من بعد أن ضاقت على أجسادنا العبارة
لكننا.. حين امتلكنا صحفاً،
تحولت نصوصنا
إلى بيان صادر عن غرفة التجارة..

12

جئنا لأوروبا
لكي نستنشق الهواء

جئنا ..

لكي نعرف ما ألوانها السماء ؟

جئنا..

هروبًا من سياط القهر، والقمع،

ومن أذى داحس والغبراء..

لكننا.. لم نتأمل زهرة جميلة

ولم نشاهد مرة، حمامة بيضاء

وظلت الصحراء في داخلنا..

وظلت الصحراء..

13

من كل صوب.. يهجم الجراد

ويأكل الشعر الذي نكتبه..

ويشرب المداد

من كل صوب.. يهجم (الإيدز) على تاريخنا

ويحصد الأرواح، والأجساد

من كل صوب.. يطلقون نفطهم علينا

ويقتلون أجمل الجياد..

فكاتب مدجن..

وكاتب مستأجر..

وكاتب يباع في المزاد

هل صار زيت الكاز في بلادنا مقدسًا؟

وصار للبترول في تاريخنا، نقاد؟؟

14

للواحد الأوحد.. في عليائه

تزدان كل الأغلفة

وتكتب المدائح المزيفة..

ويزحف الفكر الوصولي على جبينه

ليلثم العباءة المشرفه..

هل هذه صحافة

أم مكتب للصيرفه؟؟

15

كل كلام عندهم، محرم

كل كتاب عندهم، مصلوب

فكيف يستوعب ما نكتبه؟

من يقرأ الحروف بالمقلوب!

16

على الذي يريد أن يفوز

في رئاسة التحرير..

عليه.. أن يبوس

في الصباح، والمساء

ركبة الأمير..

عليه.. أن يمشي على أربعة

كي يركب الأمير!!

17

لا يبحث الحاكم في بلادنا

عن مبدع..

وإنما يبحث عن أجير...

18

يعطي طويل العمر.. للصحافة المرتزقة

مجموعة من الظروف المغلقة..

وبعدها..

ينفجر النباح.. والشتائم المنسقة..

19

ما لليساريين من كتابنا؟

قد تركوا (لينين) خلف ظهرهم

وقرروا...

أن يركبوا الجمال!!

20

جئنا لأوروبا..

لكي ننعم في حرية التعبير

ونغسل الغبار عن أجسادنا

ونزرع الأشجار في حدائق الضمير

فكيف أصبحنا، مع الأيام،

طباخين.. في مضافة الإسكندر الكبير؟.؟

21

كل العصافير التي

كانت تشق زرقة السماء

في بيروت..

وتملأ الأشجار، والبيادر..

قد أحرق البترول كبرياءها

وريشها الجميل

والحناجر..

فهي على سقوف لندنٍ..

تموت..

22

يستعملون الكاتب الكبير.. في أغراضهم

كربطة الحذاء..

وعندما يستنزفون حبره..

وفكره..

يرمونه، في الريح، كالأشلاء...

23

هذا له زاوية يومية..

هذا له عمود

والفارق الوحيد، فيما بينهم

طريقة الركوع..

والسجود..

24

لا ترفع الصوت.. فأنت آمن

ولا تناقش أبدًا مسدسًا..

أو حاكمًا فردًا..

فأنت آمن..

وكن بلا لون، ولا طعم، ولا رائحة..

وكن بلا رأي..

ولا قضية كبرى..

فأنت آمن

واكتب عن الطقس،

وعن حبوب منع الحمل –إن شئت–

فأنت آمن..

هذا هو القانون في مزرعة الدواجن..

25

كيف ترى، نؤسس الكتابة؟

في مثل هذا الزمن الصغير.

والرمل في عيوننا

والشمس من قصدير

والكاتب الخارج عن طاعتهم

يذبح كالبعير..

26

أيا طويل العمر:

يا من تشتري النساء بالأرطال..

وتشتري الأقلام بالأرطال..

لسنا نريد أي شيء منك..

فانكح جواريك كما تريد..

واذبح رعاياك كما تريد..

وحاصر الأمة بالنار.. وبالحديد..

لا أحد..

يريد منك ملكك السعيد..

لا أحد يريد أن يسرق منك جبة الخلافه..

فاشرب نبيذ النفط عن آخره..

واترك لنا الثقافه..

1989/1/10

الوضوء بماء العشق والياسمين...[4]

1

ينطلق صوتي، هذه المرة، من دمشق

ينطلق من بيت أمي وأبي

في الشام. تتغير جغرافية جسدي

تصبح كريات دمي خضراء.

وأبجديتي خضراء

في الشام ينبت لفمي فم جديد

وينبت لصوتي، صوت جديد

وتصبح أصابعي،

قبيلة من الأصابع

---

[4] المقدمة التي افتتح بها الشاعر أمسيته الشعرية التي قدمها في معرض الكتاب الدولي بدمشق بتاريخ 1988/9/22

2

أعود إلى دمشق

ممتطيًا صهوة سحابه

ممتطيًا أجمل حصانين في الدنيا

حصان العشق

وحصان الشعر..

أعود بعد ستين عاماً

لأبحث عن حبل مشيمتي،

وعن الحلاق الدمشقي، الذي ختنني،

وعن القابلة التي رمتني في طست تحت السرير

وقبضت من أبي ليرة ذهبية

وخرجت من بيتنا..

في ذلك اليوم من شهر آذار عام 1923

ويداها ملطختان بدم القصيدة

3

أدخل دمشق..

من جهة (باب البريد)

حاملًا معي،

عشرة أطنان من مكاتيب الهوى

كنت قد أرسلتها في القرن الأول للهجرة

ولكنها لم تصل إلى عنوان الحبيب

أو فرمها مقص الرقيب..

لذلك.. قررت أن أحمل بريدي على كتفي

لعل التي أحببتها..

وهي تلميذة في المدرسة الثانوية

قبل خمسة عشر قرنًا

لا تزال ترسب في امتحاناتها

تضامنًا مع ليلى العامرية

ومريم المجدلية

ورابعة العدوية

وكل المعذبات في الحب.. في هذا العالم الثالث

أو لعل الرقيب الذي كان يغتال رسائلي

قد نقلوه إلى مصلحة تسجيل السيارات

أو أدخلوه إلى مدرسة لمحو الأمية

أو تزوج ممن كان يقرأ لها رسائلي

منتحلاً إسمي..

وإمضائي..

وجرأة قصائدي..

4

أعود إلى الرحم الذي تشكلت فيه..

وإلى الكتاب الأول الذي قرأت فيه..

وإلى المرأة الأولى التي علمتني

جغرافية الحب..

وجغرافية النساء..

أعود..

بعدما تناثرت أجزائي في كل القارات

وتناثر سعالي في كل الفنادق

فبعد شراشف أمي المعطرة بصابون الغار

لم أجد سريرًا أنام عليه..

وبعد عروسة الزيت والزعتر..

التي كانت تلفها لي،

لم تعد تعجبني أي عروس في الدنيا..

وبعد مربى السفرجل الذي كانت تصنعه بيديها

لم أعد متحمسًا لإفطار الصباح

وبعد شراب التوت الذي كانت تعصره

لم يعد يسكرني أي نبيذ..

5

أدخل صحن الجامع الأموي

أسلم على كل من فيه

زاوية.. زاوية

بلاطة.. بلاطة

حمامة.. حمامة

أتجول في بساتين الخط الكوفي

وأقطف أزهاراً جميلة من كلام الله...

وأسمع بعيني صوت الفسيفساء..

وموسيقى مسابح العقيق..

تأخذني حالة من التجلي والإنخطاف،

فأصعد درجات أول مئذنة تصادفني

مناديًا:

"حي على الياسمين"

"حي على الياسمين"

6

عائد إليكم..

وأنا مضرج بأمطار حنيني

عائدٌ.. لأملأ جيوبي

بالقضامة[5]، والجانرك[6]، واللوز الأخضر

عائد إلى محارتي

عائد إلى سرير ولادتي

فلا نوافير فرساي

عوضتني عن (مقهى النوفره)

ولا سوق الهال في باريس

عوضني عن (سوق الجمعة)..

ولا قصر باكنغهام في لندن

عوضني عن (قصر العظم)..

ولا حمام ساحة (سان ماركو) في فينيسيا

أكثر بركة مع حمائم الجامع الأموي

ولا قبر نابليون في الأنفاليد

أكثر جلالًا من قبر صلاح الدين الأيوبي..

قد يتهمني البعض..

بأنني عدت إلى السباحة في بحار الرومانسية

---

[5] هي الحمص المعالج بطريقة معينة حتى تصبح تسالي و مكسرات للأكل.. وهي عادة تؤكل مع اللوز و اللب او البزر

[6] موطن الجانرك بلاد الشام، وأشهره ''الحلبي'' ويشبه في مزاياه وخصائصه البرقوق. فهو حامض وأخضر اللون، ويؤكل قبل أن يتحول إلى خوخ، لأنه في حقيقته هو الخوخ الأصفر قبل نضجه أي هو الخوخ الأخضر. ويعدّ من ضمن فاكهة قليلة جداً تؤكل'' فجّة'' قبل موعد قطافها.

إنني لا أرفض التهمة

فكما للأسماك مياهها الإقليمية

فإن للقصائد أيضًا مياهها الإقليمية

وأنا – كأي سمكة تكتب شعرًا–

لا أريد أن أموت أختناقًا...

7

أتجول في حارات دمشق الضيقة

تستيقظ العيون العسلية، خلف الشبابيك

وتسلم علي..

تلبس النجوم أساورها الذهبية ..

تحط الحمائم من أبراجها..

وتسلم علي..

تخرج لي القطط الشامية النظيفة

التي ولدت معنا..

وراهقت معنا..

وتزوجت معنا..

لتسلم علي...

تضع قليلًا من الماكياج على وجهها..

شأن كل النساء..

تصنع لي قهوة طيبة

وتعرفني على أولادها.. وأصهارها.. وأحفادها..

وتخبرني أن أكبر أولادها..

سيتخرج هذا العام، طبيبًا من جامعة دمشق

وأن أصغر بناتها تزوجت من أمير عربي

وسافرت معه إلى الخليج..

تكرج الدمعة في عيني..

وأستأذن بالإنصراف..

وأنا مطمئن على شجرة العائلة

ومستقبل السلالات..

8

أتغلغل في (سوق البزورية)

مبحرًا في سحب البهار

وغمائم القرنفل..

والقرفه..

واليانسون..

أتوضأ بماء الورد مرة

وبماء العشق مرات..

وأنسى – وأنا في سوق العطارين

جميع مستحضرات (نينا ريتشي)..

و (كوكو شانيل)..

ماذا تفعل بي دمشق؟

كيف تغير ثقافتي ، وذوقي الجمالي؟

فينسيني رنين طاسات (عرق السوس)

كونشرتو البيانو لرحما نينوف..

كيف تغيرني بساتين الشام؟

فأصبح أول عازف في الدنيا

يقود أوركسترا

من شجر الصفصاف!!

9

جئتكم..

من تاريخ الوردة الدمشقية

التي تختصر تاريخ العطر..

ومن ذاكرة المتنبي

التي تختصر تاريخ الشعر..

جئتكم..

من أزهار النارنج..

والأضاليا..

والنرجس..

والشاب الظريف..

التي علمتني أول الرسم...

جئتكم..

من ضحكة النساء الشاميات

التي علمتني أول الموسيقى..

وأول المراهقة..

ومن مزاريب حارتنا

التي علمتني أول البكاء

ومن سجادة صلاة أمي

التي علمتني

أول الطريق إلى الله..

10

أفتح جوارير الذاكرة

واحدًا.. واحدًا..

أتذكر أبي..

خارجًا من معمله في (زقاق معاوية)

كأنه غمامة من عطر الفانيليا..

أتذكر عربات الخيل..

وبائعي الصبارة..

ومقاهي (الربوة)

التي تكاد – بعد بطحة العرق الخامسة–

أن تسقط في النهر..

أتذكر المناشف الملونة

وهي ترقص على باب (حمام الخياطين)

كأنها تحتفل بعيدها القومي

أتذكر البيوت الدمشقية

بمقابض أبوابها النحاسية

وسقوفها المطرزة بالقيشاني

وباحاتها الجوانية

التي تذكرك بأوصاف الجنة...

11

البيت الدمشقي

خارج على نص الفن المعماري

هندسة البيوت عندنا..

تقوم على أساس عاطفي

فكل بيت.. يسند خاصرة البيت الآخر

وكل شرفة..

تمد يدها للشرفة المقابله..

البيوت الدمشقية بيوت عاشقة..

فهي تسلم على بعضها صباحًا..

وتتبادل الزيارات..

- في السر- ليلًا..

12

عندما كنت دبلوماسيًا في بريطانيا

قبل ثلاثين عاماً

كانت أمي ترسل لي في مطلع الربيع

في داخل كل رسالة

حزمة (طرخون) [7]...

وعندما ارتاب الإنجليز في رسائلي

أخذوها إلى المختبر..

ووضعوها تحت أشعة الليزر

---

[7] الطرخوم : ويسمى أيضا "طرخون" و "الحوذان" و بالإنجليزية : **Tarragon** نبات عشبي متوفر في منطقة الشام تتصف أوراقه بالطول النسبي حيث تتوزع على ساق النبتة بصورة متقابلة.

يباع لدى البقالين وبائعي الخضر على شكل باقات صغيرة كما هو الحال في المقدونس و النعناع و الريحان.

وأحالوها إلى سكوتلانديارد..

وخبراء المتفجرات..

وعندما تعبوا مني.. ومن (طرخوني)..

سألوني: قل لنا بحق الله..

ما اسم هذه العشبة السحرية التي دوختنا؟

هل هي تعويذة؟

أم هي دواء؟

أم هي شفرة سرية؟

وماذا يقابلها باللغة الإنجليزية؟...

قلت لهم: صعب أن أشرح لكم الأمر..

فالطرخون لغة تتكلمها بساتين الشام فقط..

وهو عشبتنا المقدسة..

وبلاغتنا المعطرة..

ولو عرف شاعركم العظيم شكسبير الطرخون

لكانت مسرحياته أفضل..

وباختصار..

إن أمي امرأة طيبة جدا.. وتحبني جدا..

وعندما كانت تشتاق لي..

كانت ترسل لي باقة طرخون..

فالطرخون عندها، هو المعادل العاطفي

لكلمة يا حبيبي...

أو لكلمة تقربني..

وعندما لم يفهم الإنجليز حرفا واحدا من مرافعتي الشعرية...

أعادوا لي طرخوني.... وأغلقوا محضر التحقيق....

13

عائد إليكم..

من آخر فضاءات الحرية

وآخر فضاءات الجنون

في قلبي..

شيء من أحزان أبي فراس الحمداني

وفي عيني..

قبس من حرائق ديك الجن الحمصي

مشكلتي..

أن الشعر عندي هو برق لا عقل له

وزلزال..

لا يستعمل حاسبات كاسيو اليابانيه..

ربما ركبت حصان الشعر..

برعونة.. ونزق..

ولكنني.. لم أغير سروجي

ولم أشتغل سائسا بالأجره..

أو شاعرا بالأجره..

صحيح.. أنني ربحت أكثر من سباق

وحصلت على مداليات ذهبية كثيرة

وصحيح.. أن الشعب العربي..

طوقني بأكاليل الغار..

إلا أن أحزاني..

كانت دائما طويلة كسنابل القمح..

فلقد كسرت ساقي ألف مره..

وكسرت رقبتي ألف مره..

وكسر عمودي الفقري، مليون مره

وإذا كنت أقف أمامكم على المنبر

وأنا بكامل لياقتي الجسدية..

فلأنني..

أقف على عظام كبريائي....

14

من خان أسعد باشا

يخرج أبو خليل القباني

بقنبازه[8] الدمسكو..

وعمامته المقصبه..

وعينه المسكونتين بالأسئله..

كعيني هاملت...

يحاول أن يقدم مسرحا طليعيا

فيطالبونه بخيمة قره كوز..

[8] القنباز أو الغنباز: يسمّونه أيضاً الكبر أو الدماية، وهو رداء طويل مشقوق من أمام، ضيّق من أعلاه، يتسع قليلاً من أسفل، ويردّون أحد جانبيه على الآخر. وجانباه مشقوقان حتى الخصر. وقنباز الصيف من كتّان وألوانه مختلفة، وأما قنباز الشتاء فمن جوخ. ويُلبس تحته قميص أبيض من قطن يسمى المنتيان.

يحاول أن يقدم نصاً من شكسبير

فيسألونه عن أخبار الزير ...

يحاول، أن يجد صوتا نسائيا واحدا

يغني معه..

يا مال الشام يا شامي..

فيخرطشون بواريدهم العثمانية

ويطلقون النار على كل شجرة ورد..

تحترف الغناء...

يحاول أن يجد امرأة واحده..

تردد وراءه:

يا طيره طيري يا حمامه..

فيستلون سكاكينهم

ويذبحون كل سلالات الحمام..

وكل سلالات النساء...

بعد مئة عام...

إعتذرت دمشق لأبي خليل القباني

وشيدت مسرحا جميلا باسمه

وصارت أغنية يا مال الشام، يا شامي

نشيدا، رسميا مقررا

على كل مدارس الإناث في سوريه....

15

ألبس جبة محي الدين بن عربي

وأهبط من قمة جبل قاسيون

حاملا لأطفال المدينه..

خوخا..

ورمانا..

وحلاوة سمسميه..

ولنسائها..

أطواق الفيروز..

وقصائد الحب..

أدخل..

في نفق طويل من العصافير..

والمنثور..

والخبيزه..

والياسمين العراتلي..

أدخل في أسئلة العطر..

تضيع مني حقيبتي المدرسية

والسفرطاس[9] النحاسي

الذي كنت أحمل فيه طعامي..

والخرزة الزرقاء..

التي كانت تعلقها أمي في صدري

فيا أهل الشام..

من وجدني منكم.. فليردني إلى أم المعتز

وثوابه عند الله..

أنا عصفوركم الأخضر..

يا أهل الشام

فمن وجدني منكم.. فليطعمني حبة قمح..

أنا وردتكم الدمشقية.. يا أهل الشام

---

[9] هذا الوعاء المعدني الذي كنا نشاهده وهو محمول بأيدي من كان يستعين به كـ (زوادة) طريق حيث تحتوي طبقاته المعدنية الثلاث على ما تضعه ربة البيت لزوجها عند خروجه صباحاً الى مكان عمله..

فمن وجدني منكم، فليضعني في أول مزهريه

أنا شاعركم المجنون.. يا أهل الشام

فمن رآني منكم.. فليلتقط لي صورة تذكارية

قبل أن أشفى من جنوني الجميل..

أنا قمركم المشرد.. يا أهل الشام

فمن رآني منكم..

فليتبرع لي بفراش.. وبطانية صوف..

لأنني لم أنم منذ قرون...

جنيف – أيلول سبتمبر 1988

القصيدة الدمشقية

هذي دمشق. وهذي الكأس والراح
إني أحب... وبعض الحب ذباح

أنا الدمشقي. لو شرحتم جسدي
لسال منه.. عناقيد، وتفاح..

ولو فتحتم شراييني بمديتكم
سمعتم في دمي أصوات من راحوا..

زراعة القلب، تشفي بعض من عشقوا
وما لقلبي – إذا أحببت – جراح.

ألا تزال بخير، دار فاطمة؟
فالنهد مستنفر.. والكحل صداح

إن النبيذ هنا.. نار معطرة

فهل عيون نساء الشام أقداح

مآذن الشام، تبكي إذ تعانقني

وللمآذن، كالأشجار، أرواح

للياسمين، حقوق في منازلنا

وقطة البيت تغفو.. حيث ترتاح

طاحونة البن، جزء من طفولتنا

فكيف ننسى؟ وعطر الهال، فواح

هذا مكان أبي المعتز.. منتظر

ووجه فائزة.. حلو، ولماح

هنا جذوري. هنا قلبي. هنا لغتي

فكيف أوضح؟ هل في العشق إيضاح؟

كم من دمشقية، باعت أساورها

حتى أغازلها.. والشعر مفتاح...

أتيت يا شجر الصفصاف، معتذرا
فهل تسامح هيفاء.. ووضاح؟

خمسون عاما.. وأجزائي مبعثرة
فوق المحيط، وما في الأفق، مصباح

تقاذفتني بحار لا ضفاف لها
وطاردتني شياطين.. وأشباح

أقاتل القبح في شعري، وفي أدبي
حتى يفتح نوار.. وقداح..

ما للعروبة تبدو مثل أرملة
أليس في كتب التاريخ، أفراح؟

والشعر. ماذا سيبقى من أصالته؟
إذا تولاه نصاب.. ومداح.

وكيف نكتب والأقفال في فمنا
وكل ثانية، يأتيك سفاح..

حملت شعري على ظهري.. فأتعبني
ماذا من الشعر يبقى، حين يرتاح؟

أيلول سبتمبر 1988

نصوص حرة

المرأة

المرأة هي الشعر..

وليست ملحقة به، أو مضافة إليه، أو هامشا من هوامشه.

كل شعر كتب، أو يكتب، أو سوف يكتب، مرتبط بالمرأة، كما يرتبط الطفل بحبل المشيمة. وأية محاولة لفك الإرتباط بينهما.. تقتل الطفل والأم معا..

الشعر يجد في المرأة مرضعته، وحاضنته، وأنثاه.

وبالتالي فهي تؤكد ذكورته، وفحولته.

والمرأة تجد في الشعر، رجلها، وبطلها، وصانع

مجدها وأطفالها، وحامي أنوثتها من الذبول، والنعفن، والإنقراض.

لا يستطيع الشعر أن يكبر.. ويترعرع.. ويقف على قدميه دون امرأة..

ولا تستطيع المرأة أن تغوي.. وتفتن.. وتلعب بالعالم على أصابعها.. إلا إذا كان الشعر رفيقها.. وحبيبها..

إذن فالمرأة والشعر يكملان بعضهما..

هي تعطيه الاشتعال، والتوهج، والمادة الأولية للإبداع..

وهو يجملها.. ويكحلها، ويعطرها.. ويحفظها من التبدد والاندثار.

آذار – مارس 1980

العطر

العطر لغة لها مفرداتها، وحروفها، وأبجديتها، ككل اللغات

والعطور أصناف وأمزجة

منها ما هو تمتمة..

ومنها ما هو صلاة..

ومنها ما هو غزوة بربرية...

وللعطر المتحضر روعته..

كما للعطر المتوحش روعته أيضا..

وهذا بالطبع يتوقف على الحالة النفسية التي نكون فيها، عندما نستقبل العطر. وعلى نوع المرأة التي تستعمل العطر

والرجل أيضا، يلعب لعبته في تقييم العطر...

بمعنى أن أنف الرجل مرتبط بثقافته، وتجربته، ومستواه الحضاري

هناك رجال يفضلون العطور التي تهمس..

ومنهم من يفضلون العطور التي تصرخ..

ومنهم من يفضلون العطور التي تغتال....

ثم إن نوعية علاقتنا بالمرأة تلعب دورها في تحديد نوع العطر الذي يقنعنا..

فعطر العشيقة شيء..

وعطر الحبيبة شيء آخر..

وعطر الطالبة ذات السبع عشرة سنة شيء..

وعطر السيدة في الأربعين شيء مختلف..

وبالنسبة لي، يتغير العطر الذي أحب، بتغير حالتي النفسية..

ففي بعض الأحيان أحب العطر الذي يشعل الحرائق..

وفي بعض الأحيان، أحب العطر الذي نسي الكلام....

وفي بعض الأحيان، أحب العطر الذي يدخل في حوار طويل معي..

وفي بعض الأحيان أحب العطر المسالم..

وفي بعض الأحيان أحب العطر المتوحش..
والعدواني..

على أن خياري الأول والأخير، في مسألة العطر، هو أنني أحب المرأة – الغمامة التي تخرج من تحت الدوش وهي لا تحمل على جسدها إلا رائحة الصابون.. وقطرات الماء..

بيروت – نيسان ابريل 1971

رثاء فراشة[10]

1

من أصعب الأشياء، أن يكتب الإنسان تاريخ فراشة
فتاريخ الفراشات، يكون عادة مكتوبا على أجنحتها
بالأخضر.. والأزرق.. والأحمر.. والبرتقالي..
ناديا تويني، هي فراشة منقوشة بالشعر من رأسها
حتى قدميها..

وأنا طول عمري، أحسب ألف حساب، قبل أن ألمس
جناحي فراشة، حتى لا يهرهر غبار القمر على
أصابعي....

[10] الكلمة التي ألقاها الشاعر في ذكرى رحيل الشاعرة اللبنانية ناديا تويني في متحف سرسق في بيروت في شهر تشرين الأول أكتوبر 1984

2

حين التقيت ناديا تويني لأول مرة، تصورت أنها
طالعة من كتاب. لم أصدق عيني
فالنساء عادة يطلعن من سوق الصاغة، أو من
معارض الأزياء، أو من صالونات التجميل...
يطلعن من شارع الحمراء.. أو من شارع فيا
فينيتو.. أو من شارع الفوبور سانت أونوريه..
ولكنهن لا يطلعن – إلا نادرا – من غابات الكتب..
ناديا تويني، حين شاهدتها، كانت جميلة ككتاب
ومرصعة بالحروف والكلمات، كجدار كنيسة بيزنطية
كانت معتقة بالتاريخ.. ككأس نبيذ..
ومكتظة بالعطايا كبيدر قمح...
وكانت تتكحل، مرة، بحزنها الخصوصي..
ومرة بحبر المطابع..
ومرة، بأحزان لبنان....

3

صعب على شاعر أن يقترب من شعر ناديا تويني..
فهي قمر شعري..

وكانت أمي توصيني أن لا أقرأ على ضوء القمر..
حتى لا أغرق في هذه المحبرة المشغولة بالحليب،
والعشق، وأسلاك الذهب..

الاقتراب من ناديا تويني صعب..
كالاقتراب من حمامةٍ مرسومة على سقف كنيسة..
كالاقتراب من ميعاد غرام..
كالاقتراب من حورية البحر..
كالاقتراب من ليلة القدر..
كالاقتراب من رائحة الله ..

4

دعتني منذ سنوات إلى منزلها في (بيت مري)[11].

---

[11] بيت مري هي إحدى القرى اللبنانية من قرى قضاء المتن في محافظة جبل لبنان.

دعاني القمر.

وحين انفتح الباب، واشتعلت ابتسامتها
كحقل من أزهار القطن، تذكرت نصيحة أمي
وخفت أن أقوم بأية حركة تجرح زجاج القمر..

5

يا ربي : كيف تستطيع امرأة أن تنعجن بالشعر،
وتنزرع فيه، كما ينزرع الحلق الفضي في آذان
الإسبانيات؟

كيف يختلط دم القصيدة، بدم ناديا تويني! حتى إذا
غرست دبوسًا في جسدها، لم تعرف أي دم سال.. دم
القصيدة.. أم دم ناديا تويني؟

كيف تخرج ناديا من كتبها لتستقبل الناس، وتحادثهم،

وتلاطفهم، ثم تعود في آخر الليل، لتنام في أجفان الحروف؟

كيف يتطابق الأصل والصورة في هذا الكيان الضوئي، فلا تجد خللا ولا تنافرًا بين الصوت وبين الشفتين.. بين الورقة وبين الأصابع.. بين البجعة وبين ماء البحيرة.

ففي حين نرى ناديا تويني، تلبس ثوب الشعر، وتبدو للناس طبيعية كسنبلة القمح وتتشابه كالليرة الذهبية من وجهيها .. نجد عشرات الشعراء العرب يلبسون الثياب المستعارة إذا قابلوا الآخرين كأنهم في حفلة كرنفال.. حتى إذا عادوا إلى بيوتهم، ونزعوا ملابسهم التنكرية، تحولوا إلى أبالسةٍ.. وشياطين..

وإذا كان بعض الشعراء العرب، يشبهون شعرهم بنسبة 30 بالمئة.. وبعضهم يشبهون شعرهم بنسبة

10 بالمئة.. فإن بعض الشعراء لدينا، لا علاقة لهم إطلاقًا بما يكتبون..

6

ثمة اتفاقية جنتلمان بين ناديا تويني.. وبين الموت.

كان يفتح الباب عليها، فإذا وجدها تكتب شعراً، اختجل من نفسه، وانسحب على أطراف أصابعه.. حتى لكأن الموت، قاريء للشعر، من الطراز الأول كانت تعطيه قصيدة، فيتخدر بإيقاعاتها الجميلة، وينام شهرًا...

ثم يعود بعد شهر ليجبي الضريبة من جديد، فتسمعه ناديا آخر قصيدة كتبتها.. فتسيل دموعه على خديه، وينصرف..

وهكذا، استطاعت ناديا تويني أن تدجن الموت.. وتقلم أظافره.. وترشوه بكلماتها الجميلة على مدى عشرين عامًا.

الشعراء وحدهم هم القادرون على قلب مخططات الموت ولخبطة حساباته..

وهم القادرون بالشعر، على إلغاء موتهم.. أو تأجيله على الأقل..

فمن دانته، إلى شكسبير، إلى فاليري، إلى رامبو، إلى أراغون، إلى بابلو نيرودا، إلى المتنبي، إلى أبي تمام، إلى أمين نخلة، إلى بشارة الخوري، إلى إلياس أبي شبكة، إلى ناديا تويني.. كان الموت يشعر بارتباك حقيقي في حضرة هؤلاء.. وفي حضرة كلماتهم العظيمة..

7

كانت جميلة كلبنان..

صافية كينابيعه..

عالية كأمواجه..

طموحة كمراكبه..

وادعة كرمال شواطئه.. ومغسولة بالوجع كأغانيه..

لم يكن معقولًا أن يموت لبنان، وتبقى ناديا تويني.

ولا كان معقولًا أن يتوقف قلب ناديا تويني عن النبض، ولا يتوقف قلب لبنان..

هناك كائنات ترتبط دورتها الدموية، بالدورة الدموية لغروب الشمس مثلًا.

وهناك كائنات، يرتبط جهازها العصبي، بعريشة عنب..

أو شجرة دفلي.. أو بمحارة على شاطئ البحر..

وهناك كائنات تسافر بتوقيت واحد مع بعضها، كالنجوم، والأسماك، واللقالق، ورائحة زهر البرتقال..

ولأن ناديا تويني كانت جزءًا من سفر العصافير، وسفر المراكب، ورائحة النعناع، وبكاء الأمطار على قراميد بيروت القدمية، فلقد قدمت كل هذه الكائنات استقالتها الجماعية إلى الله.. لأنها – بعد ناديا تويني– تشعر أنها عاطلة عن العمل..

بيروت، تشرين الأول (أكتوبر) 1984

عاصي الرحباني

1

عاصي الرحباني هو آخر الأشياء الجميلة في حياتنا

هو آخر قصيدة، قبل أن ندخل في الأمية

وآخر حبة قمح، قبل أن ندخل في زمن اليباس

وآخر قمر، قبل أن تهاجمنا العتمة

وآخر حمامة تحط على أكتافنا.. قبل زمن الخراب

وآخر الماء قبل أن تشتعل الحرائق في ثيابنا

وآخر الطفولة.. قبل أن تسرق الحرب طفولتنا

2

به بدأ الحب، وبه انتهى

وبه بدأ اللون الأخضر.. وبه انتهى

وبه بدأ النبيذ.. وبه انتهى

وبه صار بحر (أنطلياس)[12]

أعظم من المحيط الأطلسي

3

هو أعطانا الضوء الأخضر.. لنحب..

فأحببنا..

وهو الذي شجعنا على أن نذهب لمواعيدنا

فذهبنا..

وهو الذي علمنا أن نكتب على ضفائر حبيباتنا..

فكتبنا..

وهو الذي غطانا بشراشف الحنان..

فنمنا..

---

[12] أنطلياس هي إحدى القرى اللبنانية من قرى قضاء المتن في محافظة جبل لبنان.

4

على يدي عاصي، تحولت الموسيقى من مظاهرة
إلى لغة صوفية..

وتحول الحب من غزوة بربرية
إلى صلاة..

وتحول الشعر من قرقعة لغوية
إلى جملة حضارية..

وتحولنا نحن، من كائنات ترابية
إلى ضوء مسموع..

5

لم يكن عاصي، حادثًا هامشيًا في حياتنا
كان جيلًا.. ومؤسسة.. وأكاديمية..

وحادثة كبرى من حوادث التاريخ..

ويوم يكتبون تاريخ الشجر..

وتاريخ الدفلي والبيلسان
والقرميد الأحمر..

وتاريخ القرى اللبنانية التي جعلها عاصي الرحباني
أهم من باريس، ونيويورك، وسان فرانسيسكو

يوم يعلمون، بعد ألف سنةٍ في مدارسنا، أسماء
الجبال في لبنان، فسيكون عاصي الرحباني أعلى
وأهم جبل في أطلس لبنان..

جنيف 1987/6/8

الفهرس